

الأسر في رحلة مغربية مورييسكية لمجهول من القرن الهجري التاسع

فريدة بنعزوز*

(جامعة عبد المالك السعدي – كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان)

BIBLID [1133-8571] 16 (2009) 9-26

Resumen: “El cautiverio en un viaje marroquí morisco escrito por un autor anónimo del siglo IX de la Hégira”. El presente artículo aborda dos cuestiones diferentes y complementarias entre sí. En primer lugar, analiza el contexto histórico y cultural de un relato de viaje escrito por un autor anónimo en el siglo IX de la Hégira, que partió de Fez para hacer la peregrinación y, capturado por los cristianos, fue llevado a algunas islas del Mediterráneo, para luego ser liberado por un grupo de mudéjares de Cataluña, que pagaron su rescate con la intención de que les ofreciera soporte en sus prácticas y hábitos religiosos. Por otro lado, se analiza la problemática de la producción y tipología del texto, estudiando las diversas transformaciones y perspectivas en las que se encuadra. Se trata de un texto que se sitúa en el género de viajes, producido por un autor anónimo marroquí en forma de epístola dirigida a su gente en Fez, su ciudad natal. Sin embargo, en tanto que el texto fue adoptado, rehecho y difundido por la comunidad morisca, se transforma en un texto propio de los mudéjares, y finalmente en un ejemplo de la literatura morisca.

Palabras clave: Literatura de viajes; Literatura árabe; Moriscos; Mudéjares; Cautiverio; Esclavitud.

Abstract: “Captivity in a Moroccan Morisco travel written by an anonymous author in the IXth century after the Hegira”. This article approaches two different and complementary subjects. The first one is the analysis of the historical and cultural context of a travel story authored by an anonymous writer in the IXth century after the Hegira. The traveller departed from Fes in order to accomplish the pilgrimage. But he was captured by a group of Christians who took him to some Mediterranean islands. After that he was rescued by a group of Catalonian Mudejars, who paid for his liberty to have a guide in their religious ceremonies and practises. On the other hand, the article seeks to

* E-mail: fbenazouze@gmail.com

explore the question of the production and typology of the text, studying its evolution and perspectives. It is a text that can be placed within the genre of travels, written by an anonymous Moroccan in the form of a letter addressed to his relatives in Fes, his native town. However, as the text was adopted, reformulated and transmitted by the Morisco community, it became a Mudejar text and lastly a sample for Morisco literature.

Key words: Travel literature; Arabic literature; Moriscos; Mudejars; Captivity; Slavery.

ملخص البحث: تجتاز هذه المقالة معالجة مسألتين مختلفتين ومعكامتين في نفس الوقت بالنظر إلى موضوعها. يتعلق الأمر، من جهة، بالوقوف على مختلف السياقات التاريخية والثقافية ودراستها لنص رحلي بجهول من القرن التاسع المجري، خرج من فاس لأداء مناسك الحج الإسلامي، ليجد نفسه أسريراً لدى النصارى، بعض جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم طليقاً بين المدجنين بأئكونة بقطلوبنية، الذين افتدواه، ليعمل على تزويدهم بما يسيهم في تدبير شؤونهم الدينية. كما يتعلق كذلك بالنظر في إشكال إنتاج هذا النص ونوعه، وكذا مختلف إشكال التحولات التي أحضعت إليها باختلاف آفاق انتظاره وتعديها. فهو نص يندرج، بامتياز، ضمن أدب الرحلة، أعدد مغري مجھول من فاس في شكل رسالة بعث بما إلى أهله في هذه المدينة المغربية. غير أنه ما لبث أن تحول بسرعة إلى نص للمدجنين، ثم إلى نص من نصوص الآداب الموريسكية، عندما أخذ الموريسكيون في إعادة إنتاجه وتداروه بينهم بلغتهم العربية والإسبانية.

كلمات مفاتيح: أدب الرحلة، الأدب العربي، الموريسكيون، المدجنون، الأسر، الاسترقاق.

لم يحظ الأسر، من حيث كونه موضوعة أدبية بعناية مؤرخي الآداب العربية والإسلامية ودارسيها. ولم يفرد الباحثة والمؤرخون العرب والمسلمون لأسر أبناء جلدتهم واسترقاقهم في أوروبا أبحاثاً ولا دراسات مخصصة⁽¹⁾. ويعود الفضل، فيما نتواته عليه في هذا المضمار، إلى ما بذله بعض المؤرخين الغربيين

(1) ولا يعني هذا أن المكتبة العربية والإسلامية تخلو من النتاج الكثافي في الأسر بوصفه وقائع تاريخية وثقافية. فالواقع أن بعض الدراسات من هذه المكتبة قد تطرقت إلى الأسر من حيث هو كذلك، أو قد عرجت عليه. وللاطلاع على معظمها، مما عرف إلى حد الآن، يراجع: فان كونينكسفلد، بيتر شورد، "الأسرى المسلمين في أوروبا الغربية خلال العصور الوسطى المتأخرة"، نص الدرس الافتتاحي لتقى منصب أستاذ كرسى التاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا، مجلة دفاتر الشمال، ع. 5 ، شتاء 2002، 19-32.

والمستشرقين من جهد للتاريخ لهذا الأسر بوصفه وقائع تاريخية وثقافية. ويحتل من بينهم المؤرخ البلجيكي ”فيرلنلن“ مرتبة الريادة بما انتجه من أبحاث ودراسات متميزة. فلقد تناول أسر النصارى للمسلمين ضمن معالجته لتاريخ العبودية العام في أوروبا الغربية⁽²⁾. كما يتبعوا المستشرق المولندي المذكور أعلاه، ”فان

وبالنظر إلى كوننا سنعالج في هذه المقالة أسر مغربي بإسبانيا، فلقد ارتأينا التدوين في هذا الصدد، وبالإضافة إلى مقالة برنارد لوبياس، بعض عاوين المكتبة المغربية الحديثة التي تطرق إلى فك أسر المسلمين. يتعلق الأمر بتدوين محمد بن عبد الوهاب الغساني وأحمد بن المهدى الغزال ومحمد ابن عثمان المكتاسي لسفارتهم إلى هذه المملكة من أجل تدبير هذه المهمة.

الغساني. محمد بن عبد الوهاب، رحلة الوزير في افتتاح الأسير، مخ. الخزانة الحسينية، 11329 ز. أنظر أيضاً تحقيق وتقاسم، عبد الرحيم بنحداد، سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر. رحلة الوزير في افتتاح الأسير محمد بن عبد الوهاب الغساني، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا، طوكيو 2005.

الغزال. أحمد بن المهدى، نبيحة الاجتهد في المهادنة والجهاد، تج. إسماعيل العربي، لبنان، 1980.

المكتاسي. محمد ابن عثمان، الإكسير في فك الأسير، تج. محمد الفاسي، الرباط، 1965.

وللمكتاسي رحلة أخرى في نفس الغرض إلى نابولي وإلى جزيرة مالطا، التي لعبت دوراً أساسياً في أسر المسلمين والاتجار بهم في سوق النخاسة الدولية.

المكتاسي، محمد ابن عثمان، البدر السافر لمدحية المسافر إلى فكك الأسرى من يد العدو الكافر، تج. مليكة الزاهدي، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالحسيمة، 2004.

لقد أصبح المكتاسي بهذه الرحلات ”جزءاً من دبلوماسية الأسير“، بوصفها سمة من سمات ”العلاقات المغربية الإسبانية“ على عهد السلطان المغربي مولاي محمد بن عبد الله، على حد رأي سعيد بسعيد العلوي في هذا الملك وسفيرة.

العلوي، سعيد بسعيد، أوروبا في مرآة الرحلة. صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، 33-23.

Loupies . Bernard, “Destin et témoignage d'un esclave en Espagne”, *Hesperis-Tamuda*, XVII, 1976-77, 69-85.

Verlinden. Charles, *L'esclavage dans l'Europe Médiéval. I. (Péninsule Ibérique, France)*, Bruges, 1955. (2)

Verlinden. Charles, *L'esclavage dans l'Europe Médiéval. II. (Italie, Colonies Italiennes du Levant, Levant Latin, Empire Byzantin)*, Bruges, Gent, 1977.

Verlinden. Charles, “Esclave noir en France méridionale et courants de traite en Afrique”, *Annales du Midi*, 78, 1966, 335-43.

كونينكسفلد³، مرتبة الريادة كذلك في افتتاح البحث في موضوع التاريخ الثقافي العام للأسرى والمملوكين المسلمين في أوروبا، بالاعتماد على المصادر الإسلامية والأوروبية الغربية، ومن منظوريهما⁽³⁾.

ومن المعروف أن الأسر قد شكل ظاهرة من أهم ظواهر الصراع والتنافس بين الإسلام والمصاربة في العصر الوسيط ومطلع الحديث من تاريخ البحر الأبيض المتوسط. ولعله من المعروف كذلك، أن المتبليين بهذه الظاهرة من أهل هاتين الملتين⁽⁴⁾، قد وضعوا فيها آدابا متعددة للتعبير عنها، ولوakaة مختلفة لِالشكالات

Verlinden. Charles, "Les esclaves musulmans du Midi de la France", *Islam et chrétiens du Midi, (XII-XVs)*, Toulous, 215-43.

وبالإضافة إلى هذه المراجع التي أضحت اليوم كلاسيكية في موضوع هذا النوع من الأسر، يمكن الرجوع إلى طائفة من الأعمال التي تناولته أو عرجت عليه أو أشارت إليه، ومنها على سبيل التعميل لاحصر العناوين التالية التي اقترحتها علينا، مشكورة، هيئة تحكيم هذه الجملة، والتي لم تتمكن بعد من الرجوع إليها.

DAVIS, Robert C., *Christian Slaves, Muslim Masters. White Slavery in the Mediterranean, the Barbary Coast, and Italy, 1500-1800*, Hounds-mills, 2003.

FERRER MALLOL, M. T. - MUTGÉ VIVES, J. (eds.), *De l'esclavitud a la libertad: esclaus i lliberts a l'Edat Mitjana* (Col.loqui Internaciona, Barcelona, 1999), (Barcelona, 2000).

FRANCO SILVA, A., *Regesto documental sobre la esclavitud sevillana: (1453-1513)*. Sevilla, 1979.

La esclavitud en Andalucía: 1450-1550, Granada, 1992/Madrid, 1985.

LOBO CABRERA, M., *La esclavitud en las Canarias Orientales en el siglo XVI (negros, moros y moriscos)*, Santa Cruz de Tenerife, 1982.

فان كونينكسفلد، س. ذ. ونشير إلى أن هذا البحث قد جعل من أهدافه الأساسية، إبراز الأدوار التي لعبها الأسرى المسلمين من العلماء والفنانين وكبار الحرفيين في الحياة العلمية والفنية والمهنية والثقافية العامة بأوروبا الغربية.

(3) لقد كان يطال الابتلاء بالأسر، بالدرجة الأولى، الأسرى الذين كانوا يرزحون بصفة فعلية و مباشرة تحت وطأة أغلاله وقيوده المادية والمعنوية. غير أنه كان يطال كذلك في الانتماء الديني الإسلامي أو النصراني للأسرى، جميع أهل الإسلام وجميع ملة النصرانية على السواء. لذلك فمسؤولية فدية الأسرى و تحريهم كانت ترجع في غالب الأحيان إلى كل من الأمتين المذكورتين، ومن يمثلهما في ذلك الوقت من خلفائهما وأمرائهما وملوكها وأوليائهما وصلحائهما وقساوستها ورهبائهما إلخ. ولقد أنتسبت كل منهما وسائل وطرق ومؤسسات متعددة ومختلفة لتنظيم هذا الأمر وتدبير شؤونه. وللابلاغ على مختلفها وعلى كيفية اشتغالها، يراجع:

الونشريسي. "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب"، ط. محمد حجي وآخرين، الرباط، 1981-1983، المجلد الثاني، 161 وما بعدها. 213-211.

الإنسانية والدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت تترتب عنها⁽⁵⁾. ولقد اشترك كل من وضعى هذه الآداب وقرائهما من أهل الديانتين المذكورتين، في إنتاجها واستهلاكها على مر الأزمنة والعصور⁽⁶⁾.

ابن صاحب الصلاة، ”من بالإمام، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين“، تحقيق التازى، عبد المادي، بروت، 1987، 178 وما بعدها.
فان كونيكسلد، س.ذ، 30.30.

ذاكر، عبد النبي، ”الواقعي والتخيلي في الرحلة الأوروبية إلى المغرب، الدار البيضاء“، 1997، 147-158.
Bunes de Ibarra. Miguel Ángel, *La imagen de los musulmanes y del Norte de África en la España de los siglos XVI y XVII. Los caracteres de una hostilidad*, C.S.I.C, Madrid, 1989, 145-184.

(5) ونقصد بذلك الآداب مفهومها الربح والواسع؛ أي ما يشمل بالإضافة إلى الفنون التخيلية، جميع ما أنتج في هذا المضمار من نتاجات دينية وفقهية وقانونية وسياسية إلخ، لتدبير مختلف الإشكالات المذكورة. ويمكن أن نخل على ذلك بمسألة النظر الفقهي في حوار طلب الزوجة التطلب من زوجها الأسير في مكان غير معروف من بلاد الروم، أو ما هو في مثلها من المسائل التي يطرحها الأسر في الحياة العامة للأسير وحيطه الاجتماعي والثقافي، التي كانت تتطلب من المسلمين ومن النصارى رفع عنف تجديها، وإعداد الحلول الشرعية والإنسانية الملائمة لها. يراجع بالنسبة للمسلمين، وبالإضافة إلى المصادر والمراجع المذكورة أعلاه:

المالقي. الشعبي عبد الرحمن بن قاسم، ”الأحكام“، تحقيق الحلوي صدوق، دار الغرب الإسلامي، 1992، 402. 452.
وبالنسبة للنصارى، فإنني لم أتوقف بعد في الوقوف على مصدر من مصادرهم في مستوى المصدر الإسلامي المذكور في هذا التعليق. غير أنه من المعلوم أن اهتمامهم قد انصب في هذا المضمار على مواجهة تحدي وقائع تحول أسراهم في البلاد الإسلامية عن نصرانيتهم إلى الإسلام. لذلك عدوا كثيراً بهذه المسألة، حيث تفانوا في إرسال القساوسة والرهبان لأسراهم بقصد تبييت أهل ملتهم على دينهم، في انتظار تحريرهم. مثلما لم يقتصروا في بناء معابدهم وكائسهم بهذه

البلاد لتدبير هذا الأمر. يراجع: Bunes de Ibarra. Miguel Ángel, *op.cit*, 151. 155. 159-165.
García Figueras. Tomás, ”La apostasía entre los cautivos cristianos en Marruecos“, *Miscelánea de Estudios Históricos sobre Marruecos*, 233-240.

(6) والمقصود بذلك مساعدة قراء هذه الآداب، من حيث كونهم أفق انتظارها، في إنتاج موضوعاتها ومضمونها وأساليبها إلخ. وتتسحب هذه الملاحظة، بصفة خاصة، على آداب الأسر الأوروبية الصرائية التي لعب قراؤها أدواراً حاسمة في تسييدها، مثلما لعبت هي كذلك دوراً أشد قوة في تنميته تصوراكم لذاتكم ولغيرهم المعنيين بالأسر؛ أي لكل من

والواقع أننا نلاحظ في هذا المضمار تفاوتاً كبيراً فيما توافر اليوم من هذه الأداب، المبنوّة بين تراث المسلمين، ونظيره مما خلفه النصارى. ولا يرجع هذا الأمر إلى قلة عناية الباحثين بأول هذين التراثين فقط⁽⁷⁾، بل يُؤول كذلك إلى أنّ الأسرى والمهتمين بالأسر من النصارى قد عملوا جهعاً على توسيع مجالات إنتاج تراثهم المخصوص في هذا المضمار؛ لطالما بذلك مختلف ميادين الإبداعات الفنية⁽⁸⁾.

النصرانية والنصارى، وللإسلام والمسلمين. ويُوضّح كلّ هذا في المعلومات والمعطيات، والإيماءات والإيمانات، التي ترخر بما مثلاً مختلف نصوص هذه الأداب التي رفع إليها عبد النبي ذاكر وبونيس إيمار.

ولضبط إشكالات الملقي والتنميط التي تطرحها النتاجات الأدبية من حيث هي كذلك، يراجع: Jauss Hans, Robert, *Pour une esthétique de la réception*, trad. Claude Maillard, Paris, 1987.

سعيد. إدوارد، "الاستشراق. المعرفة السلطنة للإنسان"، تر. كمال أبو ديب، ط.2، بيروت، 1978.

سعيد. إدوارد، "الثقافة والإمبريالية"، تر. كمال أبو ديب، 1998.

(7) لا نستبعد من جهتنا توافر كم مهم من هذا التراث في هذا الصدد. غير أنه لم يُعرف بعد طريقة إلى التحقيق والدرس والاستثمار في الأبحاث والدراسات التاريخية والأدبية وغيرها. ولقد استمر بيتر كونيكسفلد طائفة من مخطوطات هذا التراث من مثل مخطوطة "سبك المقال في فك العقال" لابن الطواح، ومخطوطة "مفتاح الدين والجادلة" لحمد القيسى التي سُبّح بها بدورنا، ومخطوطة "رسالة السائل والجيب" لحمد الأندلسي. فضلاً عن تعريجه على الأدب الشعبي في هذا المضمار المتمثل في لجوء العاجزين من المغاربة عن فدية أسراهُم من بلاد الروم، إلى شفاعة أضرحة الأولياء والصالحين وكراماتهم.

(8) مثل المذكرات والحكايات ومختلف النصوص السردية الأخرى. ومثل التشكيلات المختلفة من رسوم ولوحات وتصاوير إلخ. وقد أرخى واضعو مختلف هذه الإبداعات الفنية العنان لخيالهم؛ ليسلّكوا بأقلامهم وريشاتهم سبل إشراك المستهلك لنتائجهم في استراتيجية إنتاج تصوّراتهم للأسرى وأسرهم، والإيقاع بذلك والدافع عنه. ولم يقم الأسرى وحدهم بتلقي تلك النصوص وهذه الرسوم ولوحات؛ فأغلبها يرجع إلى بعض الرحالة والسفراء والمغامرين. كما يُؤول كذلك، وبصفة خاصة، إلى الذين كانوا يتولون مهام تدبير فداء الأسرى وتربيتهم، الذين كانوا في الغالب من القساوسة والرهبان، ورجال الطوائف والأئمّة الصرافين. ولا غُرَّ في ذلك، فلقد كانت النصرانية ترى بأنه بقدر ما يطول مقام الأسرى بين المسلمين، بقدر ما يجح إلى الانقلاب عن دينه، والدخول في الإسلام، وعداء النصرانية ومحاربتها.

ولقد ساق بونيسي دي إيمار نماذج كثيرة من سردّيات دالة على كلّ هذه القضايا. كما أورد عبد النبي ذاكر، بالإضافة إلى النصوص، مجموعة من اللوحات والرسوم الدالة من جهتها كذلك على نفس هذا الأمر.

Bunes de Ibarra. M. A, *op.cit*, 145-184. 185-199.

كما عمل النصارى، بصفة مبكرة، على طبع قطع من هذا التراث، وعلى توزيعه بين جمهوره؛ لتنميط أدوافه وحساسياته الفنية، وتتكريس أغراضه ورغباته الحضارية الخاصة به في هذا الصدد. وبالإضافة إلى كل ذلك، فلقد بذلوا عنابة خاصة في ترتيب مختلف قطع هذا التراث، والحافظة عليها في المكتبات والمتاحف⁽⁹⁾. ولا يعني ذلك أن المسلمين قد اقتصروا على التعبير عن ظاهرة الأسر، ومواكبتها بالكتابات التاريخية والفقيمية، أو بما هو في حكمها. فالواقع أكثـر قد أبدعوا بدورهم نصوصاً حقتـ أديـتها بـامتـيازـ في عـصـرـها⁽¹⁰⁾. فـهـلـ استـطـاعـتـ هـذـهـ النـصـوصـ تـشـكـيلـ أـدـبـ لـلـأـسـرـ،ـ بـالـعـنـىـ الـخـاصـ لـلـأـدـبــ فيـ تـرـاثـ الـغـرـبــ

ذاكر، عبد النبي، س.ذ، 147-158.

(9) ولا أدل على ذلك من يسر وصول الباحثين إليها، وتمكنهم من استخدامها واستثمارها في أبحاثهم ودراساتهم.

(10) يراجع التعليق رقم: 7. وبالإضافة إلى ما يجلي عليه، نسوق بدورنا هذا النص الذي يعبر عن أدبية شراسة الأسر وقوسته على محمد القيسى، الذي كان يضطر في أسره "بكلونية" (إقليم من الشمال الشرقي لإسبانيا) إلى مجادلة القسيسين والرهبان لأنهم كانوا يتخالون منه نمودجاً للتدريب على المذاهب الدينية في مطلع القرن الميلادي الرابع عشر.

"فحاسبت نفسي أشد حساب، وطالبتها بالبلاغة أشد الطلب، وقلت نكتب بهذا كتاب ليذاكر أولى الآلاب. فلم يجد في حومتنا من ينقله عنا بعد ديارنا، وانقطعنا عن أهل ملتنا. لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب، مع أن الكلام لا يبـتـ فيـ الهـواـ،ـ وـلـاـ يـقـفـ فيـ الخـواـ.ـ [...ـ]ـ وـلـعـمـيـ كـأـنـيـ لـوـ اـسـتـطـعـتـ جـلـعـتـ القـلـمـ مـنـ بـنـانـيـ وـلـمـادـ مـنـ أـجـفـانـيـ مـرـضـةـ إـخـوانـيـ.ـ وـنـجـعـلـ الرـقـ مـنـ جـلـدـيـ،ـ بـلـ مـنـ سـحـقـ خـدـيـ.ـ وـلـوـ عـلـمـتـ أـنـ أحـدـاـ مـنـ الـسـلـمـيـنـ يـكـتـبـ [؟ـ]ـ وـيـطـلـبـ مـاـ جـرـىـ عـلـىـ خـاطـرـيـ،ـ وـلـاـ نـطـقـ بـهـ لـسـانـيـ،ـ لـأـنـ لـسـانـيـ أـعـجمـيـ،ـ قـدـ خـانـيـ جـنـانـيـ،ـ وـكـثـرـتـ أـحـرـانـيـ،ـ وـأـسـلـيـ خـاطـرـيـ [...ـ]ـ وـحـقـاـ لـمـنـ أـسـرـهـ الرـوـمـ وـكـابـدـ المـشـقـةـ وـالـهـمـمـ،ـ أـنـ يـكـلـمـ لـسـانـهـ،ـ وـيـضـعـفـ بـيـانـهـ وـيـذـهـبـ بـيـانـهـ وـتـسـلـمـهـ نـفـسـهـ،ـ وـيـكـوـنـ خـيـرـ يـوـمـهـ [....ـ]ـ وـغـصـبـيـ ثـوـبـ الإـحـسـانـ وـاسـتـبـدـلـيـ بـلـبـاسـ الـحـرـمـانـ،ـ وـرـمـانـ بـيـنـ حـزـبـ الشـيـطـانـ فـيـ دـارـ الـكـفـرـ وـالـطـغـيـانـ؛ـ أـحـدـ الصـارـىـ الـعـصـيـانـ،ـ وـالـقـسـيـسـ وـالـرـهـبـانـ فـيـ الـجـادـلـةـ وـالـهـوـانـ،ـ حـتـىـ سـلـبـيـ عـقـلـيـ،ـ وـصـبـرـيـ لـاـ أـمـلـكـ قـيـادـ قـوـلـيـ.ـ وـمـاـ أـنـاـ إـلـاـ أـحـسـبـ أـنـ أـنـظـرـ إـلـىـ قـبـرـيـ قـبـلـ اـنـقـضـاءـ عـهـدـيـ".ـ

القيسى، محمد، مفتاح الدين وجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء والمرسلين والعلماء الراشدين، مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 1557، 80-81.

ولقد نظم نفس الأديب قصيدة في انتصار المسلمين على النصارى في إحدى معاركهم بالجزيرة الخضراء، من بعدما بلغته أخبار ذلك في أسره بكلونية. 74-79.

الإسلامي؟ وهل استطاعت تمييز ملقيها داخل اختيارات ذوقية وفنية مخصوصة، تحدد بدورها تبعاً لذلك، تأسيس ذات الأدب وتطوره واستراتيجيته الثقافية والحضارية كما هو الشأن بالنسبة إلى نظيرتها النصرانية في التراث النصري؟ والحق أننا لا نملك، ولربما بالنظر إلى قلة زادنا - حد الآن - في هذا الموضوع، فرضيات لمعالجة مثل هذه التساؤلات. وكل ما نستطيع الإلقاء به في هذا المضمار، لا يبعد بادئ الرأي الذي انطبع في الذهن عبر المقارنة الأولية بين ما وقفتنا عليه في التراجم المذكورة. فلقد اهتم المسلمون مثل نظرائهم النصارى في كتابتهم عن الأسر بمختلف إشكالياته الواقعية. غير أنهم قد اقتتصدوا، وخلافاً لهؤلاء، في تشغيل الخيال عند تناولها⁽¹¹⁾. كما أنهم لم يلتفتوا كذلك، لأسباب دينية معروفة، إلى أساليب فنية أخرى للتعبير عن نفس الظاهرة، من مثل التشكيل والتصوير اللذين أبدع فيما النصارى إبداعاً مرموقاً⁽¹²⁾. ينضاف إلى

وقد خص فان كوبنكسفلد وخرار فيخرز هذا الكتاب بدراسة وافية؛ عرفت به وعالجت محتواه ومضمونه، متبعية السياق الثقافي والتاريخي للاتجاه، وما لعبه من أدوار أساسية وحاسمة في تطور التأثير الجدلي للمورسكيين ضد النصارى بإسبانيا.

كما قام محمد عبد الواحد العسري بدراسة بوصفه قطعة من المحادلة الدينية بين النصرانية والإسلام في الأندلس. Koningsveld, P.S. Van. & Wiegers, G.A., "The polemical works of Muhammad al-Qaysi (fl.1309) and their circulation in Arabic and Aljamiado among the Mudejars in the fourteenth century", *Al-Qantara*, XV, Fasc. 1, 1994, 165-199.

العسري. محمد عبد الواحد، "قواعد المناورة وأخلاقيات من خلال مجادلة محمد القيسى ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس"، مج. التاريخ العربي، ع. 15، 349-331.

(11) لا تنسحب هذه الملاحظة على الأسرى المسلمين، بقدر ما تنسحب على المسلمين الذين كثروا عن الأسر. فالظاهر أن المعنى بنتائجهم الكاتب لم يكن ليتطرق منهم أبداً عن الأسر بمفهومه الخاص، بل تقارير عن أسر المسلمين في البلاد النصرانية. ويمكن التمثال على ذلك، وعلى سبيل التحوز، بكتاب المكتاسي المذكورين، مع التنبية على أنهما لا يقعان في المرحلة التاريخية المعنية بهذه الملاحظة.

(12) تخلل الرسوم والتصويرات أغلب الكتابات النصرانية عن الأسر، وتتصدر غالقات الكتب التي تتضمنها. بما في ذلك الكتب التي تطبع إلى حد الآن. ولقد أورد النبي ذاكر في كتابه المذكور نماذج متعددة منها. س. ذ، 155. 160. 162. 164-171. 174.

وللتمثيل من جهتنا على ذلك، يراجع غالـف طبعة مذكرات جرمان موبـط عن سنوات أسره الإحدى عشرة بفاس ومكتـاس والتـصر الكـبير فيما بين 1670 و1681.

Mouette. Germain, *Relation de captivité dans les royaumes de Fez et de Maroc*, éd établie, annotée et préfacée par Xavier Girard, Mercure de France, 2002.

ذلك، افتقارهم لمدة طويلة من الزمن إلى المطبعة، وبالتالي، إلى الانتشار الواسع لأدب الأسر بينهم؛ مما أسمهم في تأثر تشكل متنقيه وتنميته⁽¹³⁾. والغالب على الظن كذلك، أنهم لم يبالغوا في الاحتفاء بافتتاح الأسير، ولا في مساحة معاناته وإعادة إنتاجها بين الناس بالشكل الذي توسل به النصارى في هذا المضمار⁽¹⁴⁾.

وبين يدي نص من مطلع القرن الهجري التاسع ، جعل من الأسر بؤرة موضوعه الأدبي والثقافي، نشره ”ميكيل دي إبالثا“، إلى جانب نص آخر من القرن الثامن، بالعنوان التالي: ”رحلتان إلى المشرق في نصين موريكين بالعربية والقشتالية“⁽¹⁵⁾. يتعلق الأمر بنص سري لرحلة مجهرة إلى الحج. رحلة مجهرة خرج من جهة مدينة فاس المغربية لأداء هذه الفريضة الإسلامية. وفي طريقه من تونس إلى مصر أخذه القرصنة النصارى أسيرا إلى مدينة ”مثلين“ بجزيرة ”هجينة“ ببحر إيجية⁽¹⁶⁾. وقد حجبه نصراي عن عملية

(13) من المعروف أنه قد تأخر ظهور أول مطبعة بالعالم الإسلامي بـإسطنبول في سنة 1762 حوالي ثلاثة قرون بعد ظهورها في الغرب النصري؛ حيث طبع غضير الكتاب المقدس حوالي سنة 1456.

التاريخ الاجتماعي للوسائل. من غتير إلى الإنترنيت، أسا بيرغرز و بيت بورك، تر. مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، 2005، 425، 427.

(14) لقد أبدع النصارى طقوساً للاحتفاء بتحريرهم لأسراهم والعودة بهم إلى بلادهم. ويتميز من بينها طقس تطهير الأسرى بين مختلف مدنهم وأشهر كنائسهم. فلم يكن ليسجح لهم بالإسراع إلى منازلهم وذويهم، إلى أن يسيروا في مواكب عديدة؛ حتى يشاهدهم الناس وهم يمسرون أمامهم حالتهم بالأسر، أو بالأحرى الحالة التي كان يريد القساوسة والرهبان والمخربون، أن يراهم الناس عليها. ولربما ذات بعض الأسرى في هذا الطواف ما لم يذقه في أسره من عذاب نقل الأعذاب والقيود الملحوظة حول الرقاب والأيدي والأرجل، إلى الحد الذي كانت تصبح فيه محل تبرم بعضهم. ولقد ساق عبد النبي ذاكراً عدة نماذج مصورة لهذه الجولات، التي تدل بذاتها على المدح المتوجى من تنظيمها، وعن القصد المرجو من تكرارها بين تلك المدن والكنائس العديدة. س.ذ. الصور : 13-14-15-16.

وما لا شك فيه أن المسلمين قد احتفوا بيورهم بتحرير أسراهم. غير أننا، وإن لا نعرف لحد الآن مختلف الأشكال التي كان يتم بها هذا الاحتفاء، فمما لا شك فيه، أنه لم يتم أبداً بمثل هذه الطريقة.

Epalza. Mikel. De, “Dos Textos Moriscos Bilingües (árabe y castellano) de Viajes a Oriente (1395 y 1407-1412)”, *Hesperis-Tamuda*, vol. XXI, 1982-83, 25-112. (15)

نفسمه، 58. من النص العربي 94. من الترجمة الإسبانية. نحيل صاعداً هكذا 58 / 94. (16)

افتراك تركية شملت من دونه بقية زملائه في الأسر من الحجاج والتجار، ليبيهه بعد ذلك إلى نخاس من أهل ملته⁽¹⁷⁾. وبذلك اقترب منه موعد السقوط في العبودية، بحسب القواعد والأعراف الجاري بها العمل آنذاك في مثل هذه الحالات⁽¹⁸⁾. ولقد حاول المرب في البحر من دون جدوى، ليتحمل بعد ذلك العذاب المخصوص عادة في هذه الحالة للطامعين في الهرب من الأسرى⁽¹⁹⁾. وبعد كتابته من "ميرقة" إلى أخيه بفاس، وتراسلها مع مددجني "طرونة" و"ليردة" في شأن فديته⁽²⁰⁾. وفيما بين الرجاء واليأس، ومن بعد

(17) يذكر رحالتنا أن إخوانه المسلمين في الأسر من التجار والحجاج، قد راسلوا مع التجار الأتراك سلطان "ابن عثمان" في شأن تحريرهم من يد "سلطان النصارى". ولقد ثمت الاستجابة إلى استغاثتهم، ففك أسرهم من دونه، لأن نصريانا كان قد أخذده قبل ذلك إلى بيته.

" وأن سلطانهم ابن عثمان	==	قلنا فنكتب له يا إخوان	==	" وأن سلطانهم ابن عثمان
كتبا بعنانها مع التجار	==	وصلت إلى أمير الافتخار	==	كتبا بعنانها مع التجار
بعث رسلا إلى سلطان	==	مثلين إذ قالوا له يا فان	==	بعث رسلا إلى سلطان
أن الأمير يطلب الأسرى	==	كلهم الضعفاء والتجار [...]	==	أن الأمير يطلب الأسرى
فخاف سلطان النصارى ذا المقال	==	واراد أن يبعثنا بلا محال	==	فخاف سلطان النصارى ذا المقال
لداره فيعد أيام حلت	==	من المدينة وقد عباني	==	لداره فيعد أيام حلت
في قارب سافر يا مصادر	==	فبعد ذلك أخذني نصرياني	==	في قارب سافر يا مصادر
نفسه، 59 / 98.				

(18) وذلك بحسب وجهة النظر القانونية الأوروبية. ويدرك فان كونينكسفلد أنه كثيرا ما كان يتصرف النصارى في الأسرى المسلمين بهذه الطريقة. فـ"الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن حول أسواق العبيد، ومن ثم يتم التوزيع على الصعيد الدولي"، وذلك قبل "وضعهم تحت تصرف الملوك المسيحيين"، س.ذ، 20.

"إلي قد ربط لي يدي	==	إلى ركيزة كذا رحلي	==	"إلي قد ربط لي يدي
فإذا النصارى اجتمعوا على	==	ليرححوا وينظروا إلى	==	فإذا النصارى اجتمعوا على
كشف لي ظهري وإذ ضربني	==	ضربوا شديدا أنه أوجعني" ، 60\98.	==	كشف لي ظهري وإذ ضربني

(20) لقد لعبت جزيرة Mallorca دورا أساسيا في التجارة العالمية بالعبيد، وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي بغرب البحر الأبيض المتوسط، وإلى تخصيصها الطبيعي الذي يوفر للنحاسين كلغة الاحتفاظ بالأسرى والملوكين وحراستهم في انتظار

انصرام أربع سنوات من ذل الأسر والعبودية، افتاده المدجعون ونقلوه إلى “ألكونة”， ليعرض بينهم بعلمه فقيههم الراغب في الرحيل عنهم إلى بلاد المسلمين⁽²¹⁾. وبذلك استعاد أسيرونا الرحالة حريته، ليرعى بزاده

تسويقهم في هذه التجارة. وإلى هذا التحصين يشير رحالتنا بقوله: “جئنا إلى ميورقة الحصينة == حين وصلونا إلى المدينة”

ويذكر رحالتنا الأسير أنه قد أرسل إلى أخيه بفاس رسالة مع تجارة يهود، يطلب منه فيها تأدية مائتين من ذهب المغرب إلى وكيل مولاه بهذه المدينة، في نفس الوقت الذي تراسل فيه مع المدجعين المذكورين يعرفهم بنفسه، وبحفظه القرآن الكريم، وإنقاذه علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية. لقد أراد بمحده الرسائل استعادة حقه الطبيعي في حريته، قبل نفاذ صير مولاه النصراني؛ الذي كان يهدده بشد طوق العبودية حول رقبته، وخاصة من بعدما علم بإمكانياته المذكورة.

”لليل جاء ضيفنا فرنسيص	==	لديكوا وهو الشهير خصوص [...]
فقال لي من أي موضع أنت	==	قلت له من حوز فاس وأخذت
في البحر ثم قال ما صنعتك	==	قلت له القراءة وبعد ذلك
كلمني لقال ما حديثك	==	هل لك من يفديك أو نبيعك
قلت له فلي أخ ما أدرى	==	كيف يكون ماله في خبرني
لأكن بفضلك لا تبعني	==	وإن رفقت لعله يخرجني
فقال لي واكتب له بأسرك	==	وأخبره بالأمر الذي جرى لك
وقل له أن شريكى بفاس	==	فعد ذلك أخذت القرطاس [...]
فخفت منه عند ذا وكتبت	==	مائتين لكم وبعد كدت
أرسلت في ذيابن اليهود	==	مع الصارى لكثير الجود
الأجد القاضى الشهير الأعظم	==	العدل الفضل الركيى العلم
أني أحفظ كتاب الله	==	أتلوه من صدري بعون الله [...]
وأحفظ الرسالة السنوية	==	لابن أبي زيد والأجرمية”， 60-99\61-102.
”فقدر الله وإذا مرضت	==	حتى بلغت الموت إذ ضفت
ضعنا كبارا فإذا الفقيه	==	الأفضل المدجن البيه
أتنى إلى ميورقة بأهله	==	برسم أرض المسلمين بفضله
قاطعه مائتين وخمسين	==	في خبر القدية فاسطاد له
		فلربنا كتب إلى المدجعين”， 62\104.

(21)

العلمي المذكور المدجدين ضمن تشبثهم بجويتهم الإسلامية والعربية داخل المناطق النصرانية بالشمال الغربي لشبه جزيرة إيبيريا⁽²²⁾.

و قبل أن نتطرق إلى ما يتعلق ببؤرة محور هذه المقالة من أسر صاحب رحلتنا، لنرجع على بعض المشكلات التي يطرحها نصها؛ من مثل مشكلة نوعه، و مشكلة نسبته إلى الأدب المغربي والأدب الموريسكي في نفس الوقت. أما عن مختلف القضايا الفيلولوجية المرافقة التي تطرح عادة في دراسة مثل هذا النص؛ من مثل قضية نسبته إلى صاحبه وإلى زمن وضعه. فضلا عن عملية ترجمته إلى قشتالية القرن السابع عشر، واستنساخه وحفظه إلخ. فالواقع أن ميكيل دي إبانثا ما قصر في شيء من ذلك عند تحريره لهذا النص، وتقديمه له.

هل يندرج نصنا ضمن ما تواضع النقد الأدبي على تسميته بأدب الرحلة، أو بأدبية الرحلة على حد تعبير عبد الرحيم مودن؟⁽²³⁾ الحق أن نصنا يحقق أهم عنصر المعيار التصنيفي الذي يسمح بإدراجه ضمن المتن الرحلوي. ”فإن كانت تتواءى فيه أنواع من الكتابة الأدبية وغير الأدبية، وتتقاطع فيه كذلك أنماط من الخطابات السردية، فإن هيمنة بنية السفر عليه، وقدرها فيه على توليف تلك الأنواع وهذه الأنماط ضمن

وأنهم من قبل طلبوا مني	==	وبفضلهم قد أسلقوه عني	(22)
يا سادني افعلوا الذي أردم	==	بأن نومهم فقلت لهم	
قلت لهم يا إخوانى أنتم	==	لأني حين كتبت إليكم	
فلا أفارقكم سوى القبر [...]	==	آخر جتموني من عذاب الأسر	
فيها من أمة النبي المختار	==	وهذه البلاد للكفار	
وبيشانع الرسول يأخذون“، 105\63	==	عدد كبير طيبون موحدون	

(23) مودن . عبد الرحيم، ”أدب الرحلة“، الدار البيضاء، 1996، 23- 56. في هذه الصفحات يعتقد مودن تعامل التصور التقليدي للأدب مع النصوص الرحلية، ويحدد من جهته معايير تحقق الأدبية في هذه النصوص. وتتضمن رحلتنا أغليها. وللاطلاع على آخر أهم التنظيرات، الفرنسيّة وأحدثها، في أدب الرحلة، يراجع الموقع الإلكتروني لمذكر البحث في أدب الرحلات جامعية السريون باريس الرابعة <http://www.crlv.org/>، حيث يمكن الوقف على مكتبه ووثائق مؤغراته ومحاضراته ودورسه مكتوبة ومسموعة كذلك.

قواعد إنتاجه وتلقيه، لتسمح بذلك⁽²⁴⁾. وإن جاء هذا النص في شكل رسالة إعوانية أرسلها كاتبها من أتکونة إلى أخيه بأحواز فاس، فهو كذلك، وفي الأصل، حكاية سفر قصدي وااضطاري في نفس الوقت⁽²⁵⁾. وبالرغم من كون صاحب هذه الحكاية قد اعتمد في صياغتها أسلوب التقرير الأقرب إلى الوصف من درجة الصفر، فالواقع أنه قد حقق أدبية رحلته عندما كتب بالزمان والمكان عن زمانها ومكانتها، ليث فيها معاناته الكفيلة بشحذ متظره بأقصى درجات الانفعال والتفاعل مع تجربة السفر⁽²⁶⁾. وبالإضافة إلى هذا وذلك، فرحلتنا يتخد من هذه الحكاية دور ساردها، ويختكر فيها شخصيتها المركبة الصانعة لأحداثها والمدبرة لمسارها. وذلك بوصفها نقلة في ذاك الزمان والمكان بالجسد والخيال والأليف والغريب، وذهاب من الذات إلى الغير، وعودة من الغير إلى الذات. وكل هذا متوافر في هذا النص، الذي لم يهمل فيه سارده وضعنا اتجاه مختلف الفضاءات الزمانية والمكانية التي تنقل بينها، مقارنا بين انتماءاته وانتماءات آسريه ومحرريه الثقافية المتباينة والمتقابلة⁽²⁷⁾.

كيف يمكن إدراج نص هذه الرحلة ضمن الأدب المغربي والأدب المورييسكي في نفس الوقت؟ فإن كان غرضنا من وضع هذا السؤال تحقيق النسب الثقافي لهذا النص، وليس النسب الإثنوغرافي لصاحبه فحسب، فإننا لن نعدم مسوغات عديدة لهذا الإدراج. صحيح أن نصنا قد كتبه مغربي من أحواز فاس وأرسله إلى أخيه وإلى عائلته وأصدقائه ومعارفه من نفس الأحواز؛ الذين شكلوا في ذاتهم، المتنقي المخصوص

(24) ومن المعلوم أن هذا الشرط، هو أهم شرط لإدراج نص ما ضمن نصوص أدب الرحلة (حسب عبد الرحيم مودن).

(25) يحكي السارد كما علمنا أنه قد قصد برحلته مكة لأداء مراسيم الحج، غير أنه وكما علمنا كذلك، قد اختر إلى السفر أسريرا إلى جزيرتي هجينة وموبرقة، ثم محررا إلى أتکونة حيث سيقيم بين المدجنين. وتحذر الإشارة إلى أن هذه الرحلة تحكي كذلك عن الوصول وعن العودة لتتضمن تبعاً لذلك الثوابت البينية لنص كل رحلة.

”قصدي إن فرقت هذه البلاد == لا بد لي بأن أسافر باجتهاد

== إلى الحجاج أحج إن شاء الله == وبعد ذا أرجع إن قضى الله“، 107 / 63

”من هذه الأرض وبائي مهرها == إذا رجعت قد أهديه لها“، 110 / 65 .

(26) تراجع النصوص المقتطعة من هذا النص الرحل.

(27) بحيث كان يقرن كل انتقال له من فاس إلى تونس، إلى مثيلين فميورقة فأتکونة بتاريخ تحقق ذلك. أما مقارنته المذكورة، فلقد استجابت إلى معاييره الدينية والأخلاقية التي تقابل الإسلام بالنصرانية والخير بالشر والخلل بالجحود والظلم.

والمحض به في ذات النص. لكنه صحيح كذلك بأنه قد أعده في كتف المدججين وبينهم، كما قد تبين ذلك. فإذا علمنا، كما سبقت الإشارة إليه، أن مؤلفه قد شغل مكانة الفقيه بينهم ووظيفته، فما الذي يعنينا من الافتراض كذلك، بل من التأكيد عليه، بأنهم قد شكلوا لديه أفقا آخر من أفق انتظاره؟ ولعله هو الأهم⁽²⁸⁾. وإن لم يكن الأمر كذلك. فما الذي جعل الموريسكين يحافظون على هذه القطعة من الأدب العربي والإسلامي للقرن الرابع عشر؟ وما الذي دفعهم إلى استنساخها، وإلى ترجمة محتوياتها ومضمونها إلى الإسبانية، بوصفها لغة أغلبيتهم الساحقة في القرن الميلادي السابع عشر، وهم على أبواب الخروج النهائي من أندلسهم؟

من المعروف أن الموريسكين قد اعتمدوا، للحفاظ على هويتهم الإسلامية وذكريهم العربية، داخل مختلف التحولات الثقافية التي أخضعوا إليها؛ على إنتاج أدبيات متعددة و مختلفة، واستهلاكها باستمرار⁽²⁹⁾.

(28) يمتنج في أسلوب هذه الرسالة ومعجمها اللغوي وبينتها التركيبة اللسان الفصيح واللسان الدارج المغاربيين، لتندرج كذلك من هذه الناحية ضمن الأدب المغربي. لكنه من المعلوم أن اللغة ليست العامل الوحيد في تحديد أفق انتظار النصوص الأدبية، ولا ترقى أبدا إلى مستوى العامل التقافي وسلطته في تحديد الأفق المعنى. والغالب على الظن عندنا في هذا المضمار، أن المدججين قد استكشروا رحالتنا هذا النص، ل حاجتهم إليه كما سيأتي ذكره. وما لا شك فيه، كذلك، أنهم كانوا قد استمعوا إليه يروي شفاهيا عليهم هذه الرحلة. فمعلوم أنه قد غلب التقليد الشفهي على التقليد الكتابي في إنتاج أدب المدججين والموريسكين واستهلاكه؛ فلقد كانوا يتحللون حول راوية يروي أديبه. ويتضح هذا التقليد حتى في الشبيت الكتابي لهذا الأدب، في صياغته ولغته وأسلوبه. ولعل رحالتنا قد رام بنظم هذه الرحلة تيسير استعمال المدججين إليها وتكلرارها وحفظها.

عن هذا التقليد بوصفه خاصية مميزة لهذا الأدب يراجع:
Galmés de Fuentes. Álvaro, "La literatura española aljamiado-morisca", *Grundriss der Romanischen Literaturen des Mittelalters*, Vol. IX, T.1, Fasc. 4, Heidelberg, 1985, 131.

(29) وهي في الغالب أدبيات دينية أو ذات طابع ديني، تتسمّ فيها المحادلة الدينية مكانة متميزة من حيث الكم. ويجتمع على هذا التقدّم جميع الدارسين الذين اعتنوا بها. تراجع نشرة خوسيه أنطونيو لاسراتي وتقدّمه لديوان الموريسكي محمد ریضان في أسماء الله الحسنى وفي مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي جاء في سبعة عشر ألف بيت باللغة الإسبانية.

Lasarte López. Jose Antonio, *Poemas de Mohamad Rabadán. Cantos de Luna - Día del Juicio – Discurso de la Luz – Los Nombres de Dios*, Zaragoza, 1991.

كما عملوا ضمن هذا المضمار، على العودة الدؤوبة إلى أجزاء دالة من التراث الأدبي والديني العربي الإسلامي. ومن ذلك ما استنسخوه ومنه ما ترجموه أو أعادوا إنتاجه إلى الإسبانية، من السير التوبية والمحادلات الدينية وحكايات الفروسية العربية وموريات المغازي الإسلامية وغيرها من قطع ذات التراث الكفيلة بخداع تلك الهوية، وإنعاش هذه الذكرة، وإذكاء الأمل في مقاومة كل أشكال القضاء المريم عليها⁽³⁰⁾.

لذلك فإننا نرى أن مخالفاته على نص هذه الرحلة واستنساخه وترجمته واستنساخها هي الأخرى - علما بأن كل ترجمة هي خدمة لذات المترجم إليهم ولثقافتهم - يعبر عن استعارتهم لهذا النص، ثم عن تملّكهم للثقافى له الذى سيسمح لهم بتحويله إلى إبداع من إبداعهم. ولا غرو في ذلك، فمما لا شك فيه من أنهم قد وجدوا في تجربة الأسر لبطله، وفي معاناته من جرائها، وفي تقلبه بين اليأس والأمل في استرجاع حريته أو سقوطه التام في العودية، وفي إصراره على إذكاء رغبته في متابعة رحلته إلى الحج، وفي العودة كذلك إلى وطنه، ما يتتيح لهم إمكانية التماهي معه، بالنظر إلى تماثل وضعيتهم من وجوه مع وضعية بطله السارى له⁽³¹⁾. فضلاً عما يحفل به هذا النص من القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية التي عضوا عليها

(30) تراجع فيما يتعلق بالسيرة النبوية، وبالغازي، وبالفروسيّة التحقّيقات والتخرّيجات والدراسات التالية:
 López-Morillas. Consuelo, *Textos aljaniados sobre la vida de Mahoma: El profeta de los moriscos*, edición y estudio, C.S.I.C de Madrid, 1994.
 García Arenal. Mercedes, *Los moriscos*, Madrid, 1975, 73-88
 Galmés de Fuentes. Álvaro, *El libro de las batallas. Narraciones épico-caballerescas*, (ed.), Madrid, 1975.

(31) لقد كان الموريسكيون يحسون بأحلكم أسرى لدى النصارى في وطنهم. لذلك استهوي بعضهم المُهرب بدينه من إسبانيا، متقدّهاً بذلك سلطانها الدينية والسياسية التي كانت تمنع ذلك. ويمكن أن تُمثل على هذا الأمر مُحرب أبي القاسم الحجري إلى المغرب، الذي وصفه بشكل مسّهـب في رحلته، التي ذهـب فيها إلى أن طرد الموريسكيـن من إسبانيا، فيهـ خـير لهم؛ لأنـه يـمكـنـهمـ منـ الخـروـجـ بـديـنـهـمـ منـ هـذـهـ الـمـلـكـةـ إـلـىـ الـبـلـادـ إـلـيـ الـإـسـلـامـيـةـ. الحـجـرـيـ. أـمـهـ بـنـ قـاسـمـ، "نـاصـرـ الدـيـنـ عـلـىـ الـقـوـمـ الـكـافـرـيـنـ"ـ، قـامـ بـتـحـقـيقـهـ وـتـقـلـيـدـهـ لـهـ وـتـرـجـمـهـ إـلـىـ الـإـنـجـلـيـزـيـةـ كـلـ مـنـ قـاسـمـ السـامـرـاـيـ وـشـورـدـ فـانـ كـوـزـينـكـفـلـ وـخـيـرـادـ فـيـخـرـ. الجـلـسـ الـأـعـلـىـ لـلـأـمـاـنـاتـ الـعـلـمـيـةـ مـدـرـيدـ، مـدـرـيدـ، 1997ـ. أـنـظـرـ أـيـضـاـ الـحـجـرـيـ، أـمـهـ بـنـ قـاسـمـ، "نـاصـرـ الدـيـنـ عـلـىـ الـقـوـمـ الـكـافـرـيـنـ"ـ، مـنـصـرـ رـحـلـةـ الشـهـابـ إـلـىـ لـقـاءـ الـأـحـبـابـ لـأـمـهـ بـنـ قـاسـمـ الـحـجـرـيـ الـأـنـدـلـسـيـ (أـفـقـاـيـ)، تـحـقـيقـ مـحـمـدـ زـيـنـقـ، الدـارـ الـبـيـضاءـ، 1987ـ.

بالنواجد وما فرطوا فيها من شيء، بقدر ما وجدوا إلى ذلك من سبيل⁽³²⁾. ذهبتا إلى أن نص رحلتنا قد جعل من الأسر بؤرة موضوعه الأدبي والثقافي. وبالفعل، فجميع الأقسام الأربع لهذا النص تحفل بأحداث أسر النصارى لكتابه، ومعاناته من جراء ذلك، كما تحفل كذلك بوقائع تدبير المدجنين لفديته وإقامته بينهم. وجميعها تجلّي وتتصدر في نفس الوقت معلم دالة من التاريخ الثقافي للأسر فيما بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط في المرحلة التاريخية المذكورة. ومنها، أنه وعلى الرغم من كون كل من المسلمين والنصارى المتنافسين على هذا الموضوع، قد استشعروا، ولدة طويلة، شراسة ظاهرة الأسر التي تطال حرمة أجساد ودماء وأموال وأعراض وأرواح ومعتقدات أنفسهم وأهالهم وذويهم، فإنّهم قد أقرواها معاً، ومارسوها جميعاً. ولا غرو في ذلك، فلقد شكل الأسر بالنسبة لهم جميعاً نتاجاً من نتاجات حروفهم المسترسلة بينهم، لا بل، مجالاً للاستثمارات الاقتصادية والمضاربات المالية. ألم يسرّ كل منهم من جهةه أموالاً لتجهيز السفن والخروج بما إلى البحر، والرسو بما على المريسي، لقطع الطريق واحتطاف الأبراء والمحاربين على السواء، من التجار والحجاج والمهاجرين لاستغافلهم؟ والحق أن لا أحد منهم قد قصر في ذلك، إلى الحد الذي تم التداخل من غير انفكاك بين القرصنة وال الحرب المشروعة، ضمن التناقض الإسلامي النصارى المذكور، حيث أمسى الأسر فيه ظاهرة طبيعية جداً. ولعل ما كان يشغل المسلمين والنصارى ضمن هذا التناقض كذلك، هو العمل على تحرير أسراهما، وفك رقاب ملوكهم من بعضهم بعضاً. ذلك هو ما جعل المسلمين، والنصارى على السواء، يحملون سلطتهم السياسية وتنظيماتهم الدينية وجماعاتهم هذه المسؤولية، التي لم تتقاعس عن إنجازها أبداً، اللهم إن لم تجد إلى ذلك سبيلاً من السبيل⁽³³⁾. ولقد رأينا كيف حرر الأتراك العثمانيون من الأسر رفاق الروyi من تجارة وحجاج، ثم كيف زحررت طرق العبودية من على عنقه إحدى جماعات المدجنيين بشرق الأندلس. وذلك هو ما كان يدفع بعض الأسرى اليائسين من تدخل ملوكهم لفكهم، إلى الاعتماد على إمكانياتهم الخاصة، من أموالهم أو أموال ذويهم، أو من مكاتبتهم لأسيادهم النصارى⁽³⁴⁾. ولقد رأينا كيف حاول رحلتنا الأسير شراء نفسه من مولاه، بأموال يدفعها أحدهم لوكيل هذا الأخير بمدينة فاس. وفي حالة اليأس التام من تلك الطريق أو هذه، بلأ بعض المسلمين إلى

Serry. Abdel Latif Mohammed, “La identidad arabo-islámica de los moriscos a través de la literatura aljamiada”, *Actes du V Symposium International d’Etudes Morisques du CEROMDI*, Zaguán, 1993, 695-709. (32)

استدرار عطف النصارى عبر دغدغة مشاعرهم الإنسانية، لكي يتصدقا عليهم بحربيهم⁽³⁵⁾. كما احتمى آخرون في استدرار دعاء المسلمين، وبركة علمائهم وكرامات أولائهم، لتكسير قيود الأسر الملتقة عليهم، أو على ذويهم⁽³⁶⁾.

ومن بين ما يتحلى ويشوّي كذلك في هذا النص مما يتعلّق فيه بالأسر، هو موضوع أسر علماء المسلمين وفقائهم واسترقاقهم في أوروبا. فلقد لقي رحالتنا الأسير في بداية أسره كل القسوة والعنّت من طرف آسريه الذين لم يتهاونوا في شد وثاقه، وجلده، وإلقائه إلى اليم، ورشقه بالسهام، مخاطرين بحياته نفسها. أما عندما اطلع سيده على هويته، وعلم منه بأنه يشارك في علوم عصره، رفع عنه هذا الضرب من العذاب الجسدي، ليستبدلّه بنوع آخر أشدّ وطأة. والظاهر أنّ الرحالة كان قد أخفى هذه المشاركة ما استطاع عن آسريه، لكي لا يقع في هذه الورطة التي كادت أن تحكم طوق الرق حول رقبته إلى الأبد. ولا

(33) تدرج رحلات الغساني والغزال والمكناسي المذكورة آنفاً في هذا الإطار. وتراجع عن التنظيمات والتقاليد الإسلامية والنصرانية في فك الأسرى مقالة بيتار فان كونيكسفلد ومصادرها في هذا المضمار، س.ذ، 20-21. 30.

وبالنسبة إلى تحرير أسرى النصارى من المسلمين، يراجع: عبد النبي ذاكر، س.ذ، 147-185. وأخل بونيس دي إيريرا. Bunes de Ibarra. Miguel Ángel, *op.cit*, 145-184.

(34) والمقصود بالمكابية كما هو معروف، أنّ الأسير يشتري رقبته بالمال الذي يجمعه من عمله أو من أموال الصدقات أو الزكوات أو غير ذلك. ورحالتنا يمثل نموذجاً من نماذج هذه المكابية. كونيكسفلد، 30-21.

(35) جاء في خطوطه “سبك المقال” لابن الطواح أن المتصوف الحراوي لكي يفك أسر بعض أقاربه “كتب إلى قسيس تكونة ليفك أسرهم، ويزيل عنهم أسرهم: بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي خلق البشر من نفس واحدة ويرأبدها خمس كلها من أدنم الأرض الواحدة فجعلهم بالحقيقة ذوي رحم واحدة، لو تعارفوا حق المعرفة بما اشتراك فيهم أبدًا خمس وانفرد بالنفس الواحدة فهو سبب وتحققت بروح الله أرواحهم، ما تقاطعوا ولا تسافكوا الدماء ولا توأبوا توابع الأسد على النعاج....”، مخ. رقم: 105، الجزءة الحسينية بالرياط. مأهود من مقالة فان كونيكسفلد، 22.

(36) ساق كونيكسفلد نماذج من الكرامات المنسوبة إلى الحدث الأندلسي المشهور بقى بن مخلد الذي استطاع في المرويات الشعبية فل الحديد من حول كعبي الأسير، وإلى الشاطئي الذي صد “كتيبة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه”， مثلما استطاع كذلك في نفس الحكايات تغيير اتجاه الرياح لتحطّم سفينة صرمانية محملة بالأسرى المسلمين على اليابسة. أما الولي الأندلسي الششتري فقد كان عندما ينادي على الأسير فإنه يرجع في اليوم المولى إلى أهله. شأنه في ذلك شأن الولي ريحان الأسود السبكي. 30. 23-22.

عجب في ذلك، فلقد احتل الأسرى المسلمين من العلماء والفقهاء مكانة خاصة جداً في سوق النخاسة الأوروبية. فبقدر ما كانت أوروبا في حاجة إلى العلوم والأداب العربية الإسلامية، وإلى مدرسيها ونساخ مخطوطاتها، بقدر ما كانت ترتفع الأسعار في هذه السوق؛ لتخفض بذلك، وتتوارى إمكانيات تحرير هؤلاء الأسرى. لذلك رفع ضيف أسيرونا ثمنه إلى مائة أوقية من ذهب المغرب بعياره الثقيل، ليتهشه بأنياب العذاب النفسي في انتظاره وترقبه وتأنجمه بين اليأس من حريرته وأمله في استرجاعها. إلى أن تداركه جماعة المدججين الأتكتونية التي افتدته بأموالها وبما جمعته من الصدقات من أجل ذلك.

وهي نفس الجماعة التي تلقت نصه، وأدرجته ضمن آدابها عبر استنساخه وتداوله، إلى أن تسلمه منها جماعات الموريسكين التي استخلفتها، والتي عملت بدورها على تداوله هذه المرة باستنساخه وترجمته إلى لغتها الجديدة؛ أي إلى الإسبانية القشتالية. وبذلك شكلت هذه الأخيرة أفقاً آخر من آفاق انتظاره الجديدة؛ للمماثلة التي ضمنها لها بين حالة سارده وبين وضعيتها في إسبانيا. لم ينحط الموريسكيون، مثل صاحب هذا النص، بين اليأس والأمل داخل أسرهم الجماعي بإسبانيا مدة طويلة؟ بلـ، ولكن هذا موضوع آخر، نسأل الله النصيحة في العمر والقدرة للعودة إليه.